الإعجاز القرآني في استعمال المفردة اللغوية في حادثة الإفك

.د عبد الفتاح محمد أحمد خضر

ملخص البحث

جاء في البحث أن المفردة القرآنية لا يتوقف عطاؤها على اللغة فحسب، بل يتنامى العطاء من خلال دراسة السياق والمناسبة، وسبب النزول، والمناخ الاجتماعي بكل أطيافه أثناء نزول القرآن العظيم. وإن دراسة المفردة التي تم اختيارها من حادثة الإفك أتاح للباحث مساحة مكانية جعلته يشعر كأنه أمام مشهد محسوس ملموس متكامل له بداية ونهاية، وتكاد المفردة تنطق بالمشهد رأي العين وقد وظَّف الباحث الاعجاز البياني في المفردة القرآنية الدالة على حادثة الافك واختيارها دون غيرها في التعبير عن هذه الحادثة. وختم الباحث بحثه بنتيجة : أنَّ المفردة القرآنية الإعجازية هي أن القرآن الكريم ليس شعراً ولا نثراً، وهو من سدى ولحمة العربية إلا أنه صنف قائم بذاته هو كلام الله وحده لا شريك له. وأوصى الباحث بعمل موسوعة مدعومة من أهل اليسار تقوم على تفسير القرآن الكريم من خلال الوقوف على عطاءات مفرداته اللغوية والبيانية الإعجازية.

The Qur'anic Miraculousness in Using The Linguistic Word in Al-Efic Event

Dr. Abdul Fattah Mohammed Ahmed Khader

Abstract

The present paper argues that the effect of the Qur'anic word does not stop at the semantic level of the language. It grows due to different aspects such as the context, occasion, the reason for descending, and the social status. The studying of the Qur'anic word which is chosen from the event of Al-Efic opens the door to the researcher to be in front of a tangible and noticeable sight in which the word itself expresses the scene. The researcher appoints this phenomenon to describe the event of Al-Efic. One of the main findings is that the Qur'an word is not a form of poetry or literary prose. The word stands as a miracle by itself because it is descended from Allah. The researcher recommends a workshop to interpret the Holy Qur'an depending on the miraculous power of the words.

الإعجاز القرآني

في استعمال المفردة اللغوية في

«حادثة الإفك»

أ.د عبد الفتاح محمد أحمد خضر

أستاذ ورئيس قسم التفسير بجامعة الأزهر

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ..... أما بعد

فلا يشك عاقل في أن ألفاظ القرآن الكريم ملوكُ الألفاظ وأجلُّها وأفصحُها، وفصاحتها تسنمت أعلى المراتبِ التي يعجز عنه بلغاءُ البشر، وأن معانيَها أجلُّ المعاني وأعظمُها وأفخمُها[1]..**وأن أول ما يحتاج أن يُشْتَغَلَ به من علوم القرآن ـ العلوم اللفظية ، ومن العلوم اللفظية تحقيقُ الألفاظ المفردة** [2]

سبب اختيار الموضوع:

من خلال تخصصي العلمي كأستاذ للتفسير وعلوم القرآن الكريم في جامعة الأزهر منذ اثنين وعشرين عاماً، ولتشريفي بخدمة كتاب الله إعلاميا، حيث استضافتي في برنامج ـــ هو الأقدم في أم إذاعات القرآن الكريم في العالم « إذاعة القرآن الكريم من القاهرة»[3] ـــ برنامج « لغة القرآن» الذي تدور حلقاتُه حول المفردةِ القرآنية من جميع

---

(١) التفسير القيم: ٤٠٣ بتصرف.

(٢) يقول الراغب: إن «أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية ، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة ، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه ، كتحصيل اللبن في كونه من أول المعاون في بناء ما يريد أن يبنيه وليس ذلك نافعا في علم القرآن فقط بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع ، فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته ، وواسطته وكرائمه ، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم ، وإليها مَفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم . وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة ، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة « المفردات في غريب القرآن (ص: ٦)

(٣) حيث إن عمر برنامج «لغة القرآن» ثلاثون سنة، تحدث فيه شيوخ علماء التفسير واللغة في جامعة الأزهر ، وكاتبه ـــ عفا الله عنه ـــ ضيف هذا البرنامج إلى يومنا هذا... ولله الحمد.

حيثيات خدمةِ المفردة للنص الشريف عن طريق:

* الوقوفِ على تحديد معني المفردة في الآية المرادة من خلال مظانها اللغوية والتفسيرية والمصطلحية .

* إبراز أثر معني المفردة الإعجازي في البيان القرآني.

* تجلية ما يستخلص منها.

* مراعاة مراد مُنزِّل القرآن سبحانه ـ على قدر الطاقة البشرية ـ

* مراعاة حال المنزَّلِ عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كذا حالِ المخاطبِ به.

* الوقوف بحَيْدَة وإنصاف وحذق بين اللغويين ـ أهل الصناعة ـ، وبين المفسرين الذين يعتمدون على المعنى الذي تخطى السياق اللغوي المعجمي إلى الواقع الثقافي المواكب لنزول القرآن الكريم المتمثل في: الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والدينية التي واكبت نزول القرآن الكريم، وهذا ما يمكن الاصطلاح عليه بملابسات النزول، تلك التي هي أوسع من أسباب النزول؛ لأنها أسباب غير مباشرة تكمن في سنن العرب وعاداتهم.

لذا فإن أي بيان قرآني لا يمكن أن نفهمه فهما صحيحاً ما لم نستحضر سياقه اللغوي وسياقه غيرَ اللغوي، ومن ثم فليس كل أخذ بظاهر النص يعتبر مفضيا إلى مراد الله ـ تعالى ـ إذ أن عمليةَ بيان المعنى وعملية استنباطه عملية معقدة، ولا يشكل البناء اللغوي الظاهري إلا مدخلا لهذه العملية[1]

حدود البحث:

تعريف الإعجاز في اللغة والاصطلاح ، بيان معنى إعجاز المفردة القرآنية ، مع التطبيق

(١) كتابنا « عادات العرب القولية في ضوء القرآن الكريم « مجلة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف بالمدينة المنورة العدد الثالث ص: ٧.

علي ما تيسر من مفرداتٍ وردت في آيات حادثة الإفك من سورة النور.[1]

الدراسات السابقة:

حفلت المكتبة الإسلامية ببحوث كثيرة تخص المفردة القرآنية من حيث خصائها، وكيف نتعامل معها من خلال تخصص اللغة العربية البحتة، ومن خلال المشتغلين بالتفسير، لكن بحثي يخص مفردات بعينها قمت بالتطبيق عليها من خلال آيات حادثة الإفك، موضحاً لماذا آثر البيان القرآني التعبير بها دون غيرها من المقاربات لها في المعنى.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث تقسيمَه إلى مقدمة ومطلبين وخاتمة

المقدمة: احتوت سببَ اختيار الموضوع وأهميته، وحدوده، والدراساتَ السابقةَ، والخطة ـ

المطلب الأول: الدراسة النظرية لمصطلح الإعجاز.

وقد احتوى هذا المطلب معنى إعجاز المفردة القرآنية، ثم مكانة هذه المفردة عند العلماء، وأهمية الوقوف عليها قبل الشروع في التفسير.

المطلب الثاني: الدراسة التطبيقية لأسرار استعمال المفردة القرآنية دون غيرها .

احتوى هذا المطلب على دراسة معظم مفردات آيات حادثة الإفك مبيناً الإعجاز القرآني في استعمالها دون المرادفات لها في المعنى.

ثم الخاتمة التي اشتملت على نتائج البحث وتوصياته .

---

(١) معلوم أن المفردة القرآنية يتم التعامل معها باعتبارين الأول: البنية ، والثاني : الدلالة ، ولا شك أن كل كلمة بل كل حرف في القرآن يحتاج إلى وقفة بنيوية أو دلالية ، لكن لمحدودية المساحة المتاحة للبحث سأتحدث عن مفردات قليلة في حادثة الإفك كنماذج للسالكين في هذا النوع الإعجازي الذي يبرز هدايات القرآن بقدر الطاقة البشرية .

المطلب الأول: الدراسة النظرية لمصطلح الاعجاز.

تحت هذا المطلب بيان معنى إعجاز القرآن بصفة عامة، وإعجاز المفردة القرآنية بصفة خاصة، وأهمية الوقوف عليها قبل الشروع في التفسير.

الاعجاز في اللغة:

عندما نستقصي ـ بقدر الطاقة ـ ما أورده اللغويون في معنى مادة الإعجاز نجد أنه يدور على القصور، وعدم القدرة على فعل الشيء، بل الضعف.

يقول ابن فارس: «العين والجيم والزاء: أصلانِ صحيحان، يدلُّ أحدُهما على الضَّعف، والآخر على مؤخَّر الشيء، فالأول عَجِزَ عن الشيء يعجز عَجْزاً، فهو عاجزٌ، أي ضَعيف. وقولهم: إنّ العجزَ نقيضُ الحَزْم فمن هذا؛ لأنه يَضْعُف رأيُه. ويقولون: «المرء يَعْجِز لا محَالة «. ويقال: أعجزَني فلانٌ، إذا عَجِزْت عن طلبه وإدراكه. ولن يُعجز اللهَ تعالى شيءٌ، أي: لا يَعجِز اللهَ تعالى عنه متى شاء. وفي القرآن: {لَنْ نُعْجِزَ اللهَ فِي الأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً} [الجن ١٢]، وقال تعالى: {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ} [العنكبوت ٢٢، الشورى ٣١][(١)]

وقال الفيروزآبادي: «الإعجاز إفعال من العَجْز الَّذى هو زوال القدرة عن الإتيان بالشيء من عمل أَو رأْى أَو تدبير[(٢)]

ويستنبط من معنى التركيب [عجز] أنه يدور واستعمالاته حول معنى الضعف، وبالتالي فإن كلمة إعجاز[(٣)] تفيد زوال هذا الضعف، وإثبات القوة.

---

(١) بصائر ذوي التمييز للفيروزابادي: ١/ ٦٥.

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: (ع ج ز) ٤/ ٢٣٢.

(٣) على مثال: شكى إليّ الفقير فأشكيته بمعني أزلت شكواه...وأعجمت الكتاب أزلت عجمته أي إبهامه.

وفي الاصطلاح:

وردت تعريفات كثيرة لمعني الإعجاز اصطلاحاً كلها نافع مقبول ارجح منها تعريف الجرجاني : «الإعجاز في الكلام هو أن يؤدَّى المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق «[1] أو كما عرفه الرافعي قائلا:» ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة ومزاولته على شدة الإنسان واتصال عنايته، ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه؛ فكأن العالمَ كلَّه في العجز إنسان واحد ليس له غير مدته المحدودة بالغة ما بلغت»[2]

وعندما نضيف الإعجاز للقرآن فإن إعجاز القرآن يعني: اعجاز الخصم عند التحدي بأن يأتي بمثل القرآن أو بآية منه مع توافر الدواعي وأسباب التحدي .

وذلك لأن القرآن الكريم نزل علي قلب النبي ـ r ـ " بأَفصح اللُّغات، وأَصحِّها، وأَبلغها، وأَوضحها، وأَثبتها، وأَمتنها، بعد أَن لم يكن ـ سيدي رسول الله ـ r ـ كاتباً ولا شاعراً ولا قارئاً، ولا عارفاً بطريق الكتابة، واستدعاءٍ من خطباءِ العرب العرباءِ وبلغائهم وفصحائهم أَن يأْتوا بسورة من مثله، فأَعرضوا عن معارضته، عجزاً عن الإِتيان بمثله، فتبينَّ بذلك أَن هذه المعجزة أعجزت العالمَين عن آخرهم[3]...

---

(١) التعريفات: ٣١.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص٩٨ .

(٣) يقول السيوطي في الإتقان: ٤/ ٥:» وَلَمَّا جَاءَ به النَّبيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أي: بالقرآن ـ إِلَيْهِمْ وَكَانُوا أَفْصَحَ الْفُصَحَاء ومصا قع الْخُطَبَاء وَتَحَدَّاهُمْ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بمثْله وَأَمْهَلَهُمْ طُولَ السِّنينَ فَلَمْ يَقْدرُوا كَمَا قَالَ تَعَالَى: {فَلْيَأْتُوا بحَديث مثْله إِنْ كَانُوا صَادقينَ}[الطور ٣٤] ثُمَّ تَحَدَّاهُمْ بعَشْر سُوَر منْهُ في قَوْله تَعَالَى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بعَشْر سُوَر مثْله مُفْتَرَيَات وَادْعُوا مَن اسْتَطَعْتُمْ منْ دُونِ اللَّه إِنْ كُنْتُمْ صَادقينَ فَإِلَّمْ يَسْتَجيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزلَ بعلْم اللَّه}[هود ١٣] ثُمَّ تَحَدَّاهُمْ بسُورَة في قَوْله: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بسُورَةٍ مثْله} [يونس ٣٨] ا ثُمَّ كَرَّرَ في قَوْله: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا

ومذهب أَهل السُّنة أَنَّ القرآن معجز من جميع الوجوه: نظماً، ومعنى، ولفظا، لا يشبهه شيء من كلام المخلوقين أَصلاً، مميَّز عن خُطَب الخطباءِ، وشعر الشعراء، باثني عشر معنى، لو لم يكن للقرآن غير معنى واحد من تلك المعاني لكان معجِزاً، فكيف إِذا اجتمعت فيه جميعاً.

ومجملها إِيجاز اللفظ، وتشبيه الشيء بالشيء، واستعارة المعاني البديعة؛ وتلاؤم الحروف والكلمات، والفواصل والمقاطع في الآيات، وتجانس الصِّيغ والأَلفاظ، وتعريف القصَص والأَحوال، وتضمين الحِكَم والأَسرار، والمبالغةُ في الأَمر والنهى، وحسن بيان المقاصد والأَغراض، وتمهيد المصالح والأَسباب، والإِخبار عما كان وعما يكون...

أَمّا إِيجاز اللفظ مع تمام المعنى فهو أَبلغ أَقسام الإِيجاز[1]. **ولهذا قيل: الإِعجاز في الإِيجاز نهايةُ إِعجاز. ..**

الخلاصة: أن ما يعنينا هو الكلمات أو المفردات الإعجازية في القرآن تلك التي وصفها الفيروزآبادي بقوله:» إن الكلمات القرآنية كُل كلمة منها بحر لا قعر له، ولا ساحل، فأَنَّى للمعارض الماحل»[2]؟؟!! هذا الاستفهام الإنكاري الذي أصاب كل معارض على

عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِه}[البقرة ٢٣] فَلَمَّا عَجَزُوا عَنْ مُعَارَضَته وَالْإِتْيَان بِسُورَةٍ تشبهه على كثرة الخطباء فيهم وَالْبُلَغَاء نَادَى عَلَيْهِمْ بِإِظْهَارِ الْعَجْز وَإِعْجَاز الْقُرْآن فَقَالَ: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْأِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِه وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً} [الإسراء ٨٨] هَذَا وَهُمُ الْفُصَحَاءُ اللُّدُّ ، وَقَدْ كَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى إِطْفَاءِ نُورِه وَإِخْفَاءِ أَمْرِه فَلَوْ كَانَ فِي مَقْدِرَتِهِمْ مُعَارَضَتُهُ لَعَدَلُوا إِلَيْهَا قَطْعًا لِلْحُجَّةِ وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ حَدَّثَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَلَا رَامَهُ، بَلْ عَدَلُوا إِلَى الْعِنَادِ تَارَةً ، وَإِلَى الاسْتِهْزَاءِ أُخْرَى، فَتَارَةً قَالُوا: «سِحْرٌ» ، وَتَارَةً قَالُوا: «شِعْرٌ» ، وَتَارَةً قَالُوا: «أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»؛ كُلُّ ذَلِكَ مِنَ التَّحَيُّرِ وَالِانْقِطَاعِ» ٤/ ٥.

(١) وعليه مدار هذ البحث .

(٢) انظر بصائر ذوي التمييز للفيروزابادي بتصرف: ١/ ٧٥..وما بعدها .

كر العصور والدهور ـ خاصة ـ أهل اللسان ـ الذين قرّعهم ــ صلى الله عليه وسلم ـ بالقرآن أشدّ التقريع، ووبّخهم غاية التوبيخ، وسفّه أحلامهم، وحطّ أعلامهم، وشتّت نظامهم، وذمّ آلهتهم وإياهم،...وهم مع كل هذا ناكصون عن معارضته، يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب، والإغراء بالافتراء....والادّعاء مع العجز بقولهم: {لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هذا} [الأنفال: ٣١] وقد قال لهم الله: {وَلَنْ تَفْعَلُوا } [البقرة: ٢٤]فما فعلوا ولا قدروا...»[1]

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفي للقاضي عياض: ١/ ٢٦١.بتصرف..

المطلب الثاني:

الدراسة التطبيقية لأسرار استعمال المفردة القرآنية دون غيرها .

آن لي أن ألج الجانب التطبيقي العملي من بحثي هذا، وذلك من خلال تناول مفردات قرآنية اخترتها من الآيات التي تخص حادثة الإفك في سورة النور[1] **من الآية (١١:٢٦)**

- **مفردة: [الْإِفْك]**

في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ } [النور: ١١]

عندما نقف متدبرين أمام مجيء مفردة « الإفك « كوصف لحديث الكاذبين على سيرة السيدة عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ دون أية مفردة اخرى مقاربة لها في المعنى، فإننا نقول:

إن إشاعة الكذب علي حبيبة الله المبرأة ـ التي هي سيدة من سيدات بيت النبوة وأمٌّ من أمهات المؤمنين ـ ليس ككذبٍ على غيرها، إذ أن الكذب المجرد : اسم موضوع للخبر الذي لا مخبر له على ما هو به، وأصله في العربية التقصير، ومنه قولهم: كذب عن قِرنه في الحرب. إذا ترك الحملة عليه،... والكذب قد يكون في حق المتكلم نفسه، ولذا يقال لمن قال: فعلت كذا ولم أفعل كذا. مع عدم صدقه في ذلك: هو كاذب... وـ أيضًا ـ قد يحسن الكذب على بعض الوجوه، كالكذب في الحرب، وإصلاح ذات البين...

أماالإفك: فهو الكذب الفاحش القبيح الفادح.. ، وهو:» أَبْلَغُ مَا يَكُونُ مِنَ الْكَذِبِ

---

(١) قال الآلوسي في روح المعاني: ٩/ ٣١٢:» أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنه قال: نزلت ثمانيَ عشرةَ آيةً متواليات بتكذيب من قذف عائشة وبراءتها. وأخرج الطبراني عن الحكم بن عتيبة قال: إنه سبحانه أنزل فيها خمس عشرة آية من سورة النور ثم قرأ حتى بلغ الْخَبِيثاتُ لِلْخَبِيثِينَ [النور: ٢٦] وكأن الخلاف مبني على الخلاف في رؤوس الآي، وفي كتاب العدد للداني ما يوافق المروي عن ابن جبير»

وَالِافْتِرَاءِ، وَقِيلَ: هُوَ الْبُهْتَانُ، وَهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي لَا تَشْعُرُ بِهِ حَتَّى يَفْجَأَكَ» [1] **فكل أفك كذب، وليس كل كذب إفكاً.**

ويقال للرجل إذا أخبر عن كون زيد في الدار وزيد في السوق: إنه كذَب، ولا يقال: أَفِكَ حتى يكذب كِذبة يفحُش قبحُها، مثل: الكذب على الله ورسوله، أو على القرآن، ومثل قذف المحصنة، وغير ذلك مما يفحش قبحه، وجاء في القرآن على هذا الوجه، قال الله تعالى: (وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) [الجاثية: ٧] أي: هلاك شديد لكل من افترى أقبح الأكاذيب على الله ولكل من كثرت آثامه. وقوله تعالى:(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ) [النور: ١١]

وأصله في العربية الصرف، قال الراغب: « كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه» [2] قال تعالى: {قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [التوبة: ٣٠]» أي: يصرفون عن الحق، وتسمى الرياح «المؤتفكات»؛ لأنها تقلب الأرض فتصرفها عما عهدت عليه، وسميت ديار قوم لوط «المؤتفكات» لأنها: قلبت بهم..

وعلى هذا فقد قيل في حق السيدة عائشة ت رضي الله عنها ـ كلام مقلوب عن وجهه الحق، قال الزمخشري:» الأفك هو: القلب؛ لأنه قول مأفوك عن وجهه. والمراد: ما أُفك به على عائشة ـ رضى الله عنها ـ «[3]

وإعجاز مفردة الإفك ينصرف في سياقها هنا إلى قذف المحصنات ممثَّلا ذلك في السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ وهذه المفردة بهذا المعنى تحمل عدة أمور، منها:

الدفاع عن حبيبة الله المبرأة أمنا السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ وقطع لسان من

---

(١) الكشاف للزمخشري:٣/ ٢١٧ ، ومفاتيح الغيب: ٢٣/ ٣٣٧.

(٢) المفردات للراغب: ص٧٩.

(٣) الكشاف: ٣/ ٢١٧.

قذف محصنة ومنها: وصف الجائي بما يلطخ فراش العفيفات وعلى رأسهن السيدة عائشة بأنه جاء بأفحش الكذب وأقبحه على الإطلاق، ومنها: أن المفتري بترويج هذه الشائعة المغرضة قد صرف طهر أمنا السيدة عائشة وعفافها وطيبتها إلى وصفها بالزنا ـ والعياذ بالله ـ ومنها: الذب عن مقام الحبيب المصطفى ـr ـ وبيت النبوة السامق، إذ كلما اشتد النكير على القائل كلما كان ذلك أزجر وأشد تخويفا.. ومنها: أن تلك المفردة تحمل ردا للفتنة بين المسلمين على أبلغ ما في العربية.

وإعجاز هذه المفردة ينسبك مع النَّتْن الذين صنعوا هذا الزور والخنا يقول ابن عاشور" وَالْإِفْكُ: حَدِيثٌ اخْتَلَقَهُ الْمُنَافِقُونَ وَرَاجَ عِنْدَ الْمُنَافِقِينَ وَنَفَرٍ مِنْ سُذَّجِ الْمُسْلِمِينَ إِمَّا لِمُجَرَّدِ اتِّبَاعِ النَّعِيقِ، وَإِمَّا لِإِحْدَاثِ الْفِتْنَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ [1] **وابن عاشور بهذا البيان يعكس الأثر الاجتماعي في بيان دلالات الألفاظ التي زادت عن دلالتها الوضعية،وقد سبقه في هذا الفخر الرازي في مفاتيح الغيب قائلا: "الْمَعْرُوفَ مِنْ حَالِ عَائِشَةَ قَبْلَ تِلْكَ الْوَاقِعَةِ إِنَّمَا هُوَ الصَّوْنُ وَالْبُعْدُ عَنْ مُقَدِّمَاتِ الْفُجُورِ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ كَانَ اللَّائِقُ إِحْسَانَ الظَّنِّ بِهِ، ، كما أَنَّ الْقَاذِفِينَ كَانُوا مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَأَتْبَاعِهِمْ، وَقَدْ عُرِفَ أَنَّ كَلَامَ الْعَدُوِّ الْمُفْتَرَى ضَرْبٌ مِنَ الْهَذَيَانِ، فَلِمَجْمُوعِ هَذِهِ الْقَرَائِنِ كَانَ ذَلِكَ الْقَوْلُ مَعْلُومَ الْفَسَادِ قَبْلَ نُزُولِ الْوَحْيِ "[2]ـ**

وقد عبر القرآن عن الإفك بالمجيء" للإشارةٌ إلى أنَّهم أظهرُوه من عندِ أنفسِهم من غير أن يكون له أصل"[3] **هكذا تصل المفردة القرآنية إلى أعلى درجات البيان الإعجازي الذي لا يصح بحال أن يحل محلَّها أية مفردة أُخرى لفاعلية دور السياق ـ الذي سماه**

(١) التحرير والتنوير:١٨/ ١٧٠.
(٢) مفاتيح الغيب: ٢٣/ ٣٣٧.
(٣) إرشاد العقل السليم: ٦/ ١٦٠.

الإمام الشاطبي «المعنى التركيبي «[1]ـ في تحديد دلالة الكلمة التي قد تتخطي الدلالات المعجمية لتعطي مزيدا من الدلالات النفسية والإيحائية والاجتماعية والتطهيرية..ومن أروع ما اختم به إعجاز هذه المفردة ذلك الذي أبدع فيه البقاعي بقوله:» الإفك: القول المصروف عن مدلوله إلى ضده ، المقلوب عن وجهه إلى قفاه، وعرّف ـ بالألف واللام ـ زيادة تبشيع له في هذا المقام ، حتى كأنه لا إفك إلا هو؛ لأنه في حق أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ وهي من أحق الناس بالمِدحة لما كانت عليه من الحصانة والشرف والعفة والكرم ، فمن رماها بسوء فقد قلب الأمر عن أحسن وجوهه إلى أقبح أقفائه، وترك تسميتها تنزيهاً لها عن هذا المقام ، إبعاداً لمصون جانبها العلي عن هذا المرام»[2]ـ ولله در عالم الزيتونة المفسر البياني عندما جعل هذه المفردة هنا علماً بالغلبة على الاختلاق الذي أصابوا به السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ قائلاً «فَالْإِفْكُ: عَلَمٌ بِالْغَلَبَةِ عَلَى مَا فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنَ الِاخْتِلَاقِ».[3]

فسبحان من هذا كلامه...وسبحان من هذا بيانه.

***

- **مفردة: عُصْبَةٌ ..**

في قوله تعالى{إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ .. }[النور ١١]

المتأمل في البيان القرآني المتعلق بحادثة الإفك يجد أنه في حديثه عن الذين نشروا خبر الإفك عبر عنهم بالعصبة، ولم يعبر عنهم بـ جماعة ولا بـ طائفة ولا بـــ فريق، ولا بـــ فئة ، ولا بـ شيعة. ولا بقوم ، ولا برهط ، ولا بنفر ، ولا بشرذمة، وكل هذه المفردات في لغة

(١) الموافقات:٢/ ٦٣.
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي:٥/ ٢٣٩.
(٣) التحرير والتنوير : ١٨/ ١٧١.

العرب تصلح وصفا لمجموعة من الناس ، لكن لماذا عصبة في هذا الموقف ؟

الجواب :أن الجذر (عصب) تدور معاني استعملاته حول الالتئام والاكتناز والتضام يقول ابن فارس:» العين والصاد والباء أصلٌ صحيحٌ واحد يدلُّ على رَبْط شيءٍ بشيء، مستطيلاً أو مستديراً. ثم يفرّع ذلك فروعاً، وكلّه راجعٌ إلى قياس واحد، من ذلك العَصَب. قال الخليل: هي أطناب المفاصل التي تُلائِم بينها، وليس بالعَقَب. ويقال: لحمٌ عصِب، أي: صلب مكتنِزٌ كثير العصَب. وفلانٌ معصوب الخَلْق، أي شديد اكتناز اللَّحم. وهو حَسَن العَصْب، وامرأته حَسَنة* العَصْب. والعَصْب: الطيُّ الشديد. ورجلٌ مَعصوب الخَلْق كأنَّما لُوِيَ لَيًّا» [1]

والعُصبة في لغة العرب بناء على حقيقتها الوضعية تعني :»جماعةٌ مُتَعَصِّبَةٌ متعاضدة. قال تعالى:»لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ» [القصص٧٦] ،وقال ـ أيضاً:» وَنَحْنُ عُصْبَةٌ» [يوسف١٤] أي: مجتمعة الكلام متعاضدة، واعْصَوْصَبَ القومُ: صاروا عَصَباً، وعَصَبُوا به أمراً، وعَصَبَ الرّيقُ بفمه: يبس حتى صار كالعَصَبِ أو كالمَعْصُوبِ به.. والعِصَابَةُ: ما يُعْصَبُ به الرأسُ والعمامةُ». [2] **«والعصابة العشرة فصاعداً، لتعصبهم في المهمات فلها هنا موقع حسن** [3]

والحدث ألقي بظلاله على هذه الفئة، التي تنتمي إلينا شكلا ـ وهم أهل النفاق ـ وعلى رأسهم من تولي كبره وهو ابن سلول: رأس النفاق، ومن هم منا لكنهم ببشريتهم انساقوا ورددوا ثم أحدثوا توبة كـالصحابي الجليل حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ [4]**، ولو**

(١) مقاييس اللغة: (ع ص ب) ٤/ ٣٣٦.
(٢) المفردات للراغب:٥٦٨.
(٣) المفردات للراغب:٥٦٨.، وعناية القاضي للشهاب الخفاجي: ٦/ ٣٦١.
(٤) قال الآلوسي: «الظاهر أنه ـ رضي الله تعالى عنه ـ لم يتكلم به عن صميم قلب وإنما نقله عن ابن أبيّ لعنه الله تعالى، وقد جاء أنه رضي الله تعالى عنه اعتذر « قلت وهذا مشهور في كتب السنة ولدى شراح البخاري

فضحهم الله في جميع ما أسروه وما أعلنوه ، وأمر بمعاقبتهم بما يستحقون على ذلك ، لفسدت ذات البين[1]

يقول العلامة أبو زهرة : «والعصبة: الطائفة المجتمعة التي يشد بعضها بعضا، وكأنهم جماعة يتآمرون فيما بينهم على قول الباطل وترويجه وإشاعته، وقوله تعالى: (مِّنكُمْ)، إشارة إلى أنهم يعيشون بينكم، وأنهم يتغلغلون في أوساطكم، وحسبك أن « مسطحا « هذا له بالصديق قرابة، وكان أبو بكر – رضي الله عنه – يعطيه من فضل ماله[2]

ويزيد الآلوسي البيان القرآني إيضاحاً باستكناه الوصف بـ «عصبة» ـ في هذا السياق ـ وأنه من أمارات الإفك الذي لا أصل له من حقيق او حقيقة، فيقول:» بأن الجائين بذلك الإفك فرقة متعصبة متعاونة وذلك من أمارات كونه إفكا لا أصل له» [3]

وزاد الفيروزابادي ما يزيد الصورة البلاغية الإعجازية لمفردة «عصبة « بيانا فيقول: والعُصْبة – بالضمّ ـ : نبات يتلوّى على الشجرة، وهو اللَّبْلاَب[4] **وهو بهذا يؤكد أن باطلهم تلوى بعضه على بعض لتلويث سيرة حبيبة الله المبرأة لتطال بيت النبوة الطاهر .... فهل يا ترى لو أتت مفردة غير هذه ستضرب بسهم إعجازي دقيق كهذا السهم وذاك البيان؟ !!**

*****

- **مفردة : [كبره]**

في قوله تعالى: {وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ }[النور١١]

ومسلم٩/ ٣١.

(١) نظم الدرر: ٥/ ٢٣٩.

(٢) زهرة التفاسير :١٠/ ٥١٥٤.

(٣) روح المعاني: ٩/ ٣١٠.

(٤) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز:٤/ ٧٠.

حيث لم يقل القرآن الكريم فيمن شرع في نشر حديث الإفك: والذي «تحمل إثمه» أو «الشروع في نشره»، أو «تحمل معظم أمره» أو نحو ذلك «له عذاب عظيم» ؛ لأن المفردة القرآنية « كِبْرَهُ « تشع من المعاني والإشراقات الإعجازية ما لا يصدر عن غيرها ـ فمهما أتيت بكل مفردة بليغة فصيحة لتجعلها مكان :» كبره « لن تفي بإعجازية هذه المفردة الكريمة اللائقة بالحدث.

حيث ذكر ابن فارس عن التأصيل لهذه المادة أن: «الكاف والباء والراء أصلٌ صحيح يدلُّ على خِلاف الصِّغَر، يقال: هو كَبيرٌ، وكُبَار، وكُبَّار. قال الله تعالى: {وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً} [نوح ٢٢]. والكِبْرُ: مُعظَم الأمر، قوله عزّ وعلاَ: {والَّذِي تَوَلّى كِبْرَهُ} [النور ١١]، أي: مُعظَم أمرِه «[1] **وقد قريء[كبره]» بكسر الكاف، وبضمها[2]بالكسر البداءة بالشيء، وقيل: الإثم أي: تولى الإثم فيه[3] وبالضم: المعظم، قال ثعلب:» يعني معظم الإفك» ...؛لأن العرب تقول فلان تولى عُظْمَ الأَمر يريدون: أَكثره... والكُبْرُ بالضم ـ أيضاً ـ : أَكْبَرُ ولد الرجل** [4]

وتنامت دلالة المادة بمزيد معانيها فقال ابن سيده:» والكِبْرُ» الإثم الكبير وما وعد الله عليه النار.. وهو من الكبيرة كالخِطْءِ من الخَطيئة.... [5] **وجمهور العلماء على أن الذي تولى كبره ويستحق محتوي هذه المفردة المعجزة هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ بن سَلُولٍ وَهُوَ مُنَافِقٌ وَلَيْسَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ـ عليه اللعنة ـ وعلى ذلك أكثر المحدثين، وكان ـ لعنه الله تعالى ـ يجمع الناس عنده ويذكر لهم ما يذكر من الإفك، وهو أول من اختلقه وأشاعه لإمعانه في**

(١) مقاييس اللغة لابن فارس :٥/ ١٥٣.
(٢) النشر لابن الجزري : ٢/ ٣٧٠.
(٣) الوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري :١٤٥.
(٤) لسان العرب: عظم ٥/ ١٢٥.
(٥) روح المعاني: ٩/ ٣١٢،

عداوة رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ وعذابه في الآخرة بعد جعله في الدرك الأسفل من النار لا يقدر قدره إلا الله ـ عز وجل ـ وأما في الدنيا فوسمه بميسم الذل وإظهار نفاقه على رؤوس الأشهاد وَحَدِّه حدين»[1]

والذي نلحظه أن هذه المفردة القرآنية الإعجازية ضمت كل ما ابداه السادة العلماء من معان معجمية، وقراءات قرآنية، وومضات واقعية تاريخية ملاصقة للنص وجوه الذي قيل فيه ، إذ أن المنافق ابن سلول هو الذي شَرَع، وهو الذي جيَّش جيوش النفوس المريضة، واستمال بعض الأفاضل من الصحب الكرام ـ عليهم رضوان الله ـ في محيطه، وهو الآثم الذي ارتكب كبيرة من الكبائر الموجبة للحد، وهو الذي عليه جرم هذه السنة السيئة التي اقترفها، وعليه وزرها، ووزر من عمل بها إلي يوم القيامة ...كما أن التعبير بكلمة {كِبره] دون غيرها يشعر بفداحة الخطب، وضخامة التهمة التي اتهمت بها السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ حيث إن الوصف بالكبر يدل على ان المنافقين كانوا يدعمون هذا الإفك حتى يزيد في عظم الجرم متزامنا مع انتشار الخبر يوما بعد يوم فناسب ذلك الواقع التعبير بالكبر دون غيره ..يقول د. محمد حسن جبل ـ رحمه الله تعالى ـ عن المعنى المحوري لتركيب « كبر « نُمُوّ حَجْم الشيء أو زيادته بالنسبة لحجمه أو لحجم غيره – كنمو جسم الناشئ شيئًا بعد شيء، أو زيادةُ حَجْمه عن غيره. وللتلازم بين امتداد زمن وجود الحي وعظم حَجْمه باطّراد استُعمل في الامتداد الزمني[2] ..

كل هذه المعاني تقولَبَت في مفردةٍ هي اللائقة بالحدث وبمن أحدثه ، وصدق من هذا كلامه حيث يقول:» {فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [التغابن: ٨].

(١) روح المعاني: ٩/ ٣١٢. التحرير والتنوير: ١٨/ ١٧٣و حاشية الطيبي على الكشاف: ١١/ ٣٢.
(٢) المعجم الاشتقاقي المؤصل :٤/ ١٨٦٤.

- **مفرة: [ظن]**

في قوله تعالى:[لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا..] [النور١٢]

جاء التوبيخ في الآية الكريمة لكل من ذهل من المؤمنين أو نسي حقيقة الرد والصد لكل ما لا يليق بالعفة والعفيفات، والبيوت الطاهرات، لتبدأ الآية بـ«لولا « وهي حَرْفٌ بِمَعْنَى (هَلَّا) لِلتَّوْبِيخِ كَمَا هُوَ شَأْنُهَا إِذَا وَلِيَهَا الْفِعْلُ الْمَاضِي وَهُوَ هُنَا» ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ». ..وهو مَحَلُّ التَّوْبِيخِ ..فَأَسْنَدَ السَّمَاعَ إِلَى جَمِيعِ الْمُخَاطَبِينَ وَخَصَّ بِالتَّوْبِيخِ مَنْ سَمِعُوا وَلَمْ يُكَذِّبُوا الْخَبَرَ... (١)

لكن لماذا ظن بالذات وليس غيرها من صيغ اليقين ؟

الجواب ـ والله أعلم ـ: أن أدني ما يمكن توافرُه في مسلم، أن يظن خيراً بنفسه، والنبي ـ صلي الله عليه وسلم ـ أولي بالمؤمنين من أنفسهم، قال تعالى { النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} [الأحزاب: ٦] والحدث يخص بيت الحبيب ـ r ـ فالأولى أن نظن به ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبأهل بيته خيراً، كذا عامة المسلمين والمسلمات، ولا يَصِمُ أحدٌ أحداً بتهمة إلا بدليل واضح كالشمس في رائعة النهار.

ومفردة " ظن " هنا تحمل تنبيهاً عَلَى» أَنَّ حَقَّ الْمُؤْمِنِ إِذَا سَمِعَ قَالَةً فِي مُؤْمِنٍ أَنْ يَبْنِيَ الْأَمْرَ فِيهَا عَلَى الظَّنِّ لَا عَلَى الشَّكِّ، ثُمَّ يَنْظُرَ فِي قَرَائِنِ الْأَحْوَالِ وَصَلَاحِيَّةِ الْمُقَامِ، فَإِذَا نُسِبَ سوء إِلَى من عُرْفٍ بِالْخَيْرِ ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ إِفْكٌ وَبُهْتَانٌ حَتَّى يَتَّضِحَ الْبُرْهَانُ.

وَفِيهِ تَعْرِيضٌ بِأَنَّ ظَنَّ السَّوْءِ الَّذِي وَقَعَ هُوَ مِنْ خِصَالِ النِّفَاقِ الَّتِي سَرَتْ لِبَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ غُرُورٍ وَقِلَّةِ بَصَارَةٍ، فَكَفَى بِذَلِكَ تَشْنِيعًا لَهُ، وَهَذَا تَوْبِيخٌ عَلَى عَدَمِ إِعْمَالِهِمُ

(١) التحرير والتنوير: ١٨/ ١٧٤.

النَّظَرَ فِي تَكْذِيبِ قَوْلٍ يُنَادِي حَالُهُ بِبُهْتَانِهِ، وَعَلَى سُكُوتِهِمْ عَلَيْهِ وَعَدَمِ إِنْكَارِهِ.[1]

والظن كما هو الشكّ، وكما هو الوهم فهو التردّد بين أمرين استويا أو ترجّح أحدهما على الآخر. وهو ـ أيضاً ـ: اسم لما يحصل عن أمارة متى قويت أدّت إلى العلم، قال تعالى: {وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ}[ص٢٤]، أي: علم،، ومتى ضعفت جدّا لم يتجاوز حدّ التّوهّم ... ثم إطلاق الظّنّ على الاعتقاد الراجح هو المشهور كما في قوله تعالى:{ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ][الأنبياء ٨٧] وقوله: وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ[الحشر٢] أي: اعتقدوا اعتقادا كانوا منه في حكم المتيقّنين.[2]. وهذا منتهي الحيدة في البيان القرآني .

وفي كليات أبي البقاء[3] « **الظّنّ « يكون معناه [يقينا] و[شكّا] فهو من الأضداد كالرّجاء يكون خوفا وأمنا، وهو بمعنى اليقين في قوله تعالى: { الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة: ٤٦]وكما جاء في الحديث القدسي: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»[4]..، والظّنون تختلف قوة وضعفا ..، وَمن الظَّن مَا يجب اتِّبَاعه كَحسن الظَّن بِاللَّه ـ تَعَالَى ـ، وَمَا يحرم كالظن فِي الإلهيات والنبوات، وَحَيْثُ يُخَالِفهُ قَاطع، وَظن السوء بِالْمُؤْمِنِينَ ـ كما في الآية الكريمة التي نحن بصددها ـ وَمَا يُبَاح كالظن فِي الْأُمُور المعاشية**[5] **والظَّنُّ في كثير من الأمور مذموم، ولذلك قال تعالى:[وَما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا][يونس ٣٦]، {وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا } [النجم: ٢٨] [النجم٢٨]، وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَما**

(١) التحرير والتنوير: ١٨/ ١٧٤.
(٢) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي:٢/ ١١٥٣ .
(٣) الكليات لأبي البقاء: ٥٩٣.
(٤) متفق عليه ..البخاري :٧٤٠٥، ومسلم: ٢٦٧٥.
(٥) الكليات لأبي البقاء: ٥٩٣..بتصرف

ظَنَنْتُمْ[الجن ٧] [١]

والسياق فيما تقدم هو الحكم الإعجازي الذي يحدد مسار المعني ومرساه الإعجازي، يقول البيضاوي :» الإيمان يقتضي ظن الخير بالمؤمنين والكف عن الطعن فيهم وذب الطاعنين عنهم كما يذبونهم عن أنفسهم[٢] قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: ذَلِكَ مُعَاتَبَةً لِلْمُؤْمِنِينَ إِذِ الْمُؤْمِنُ لَا يَفْجُرُ بِأُمِّهِ وَلَا الْأُمُّ بِابْنِهَا، وَعَائِشَةُ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ هِيَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنَّهُ جَعَلَ الْمُؤْمِنِينَ كَالنَّفْسِ الْوَاحِدَةِ فِيمَا يَجْرِي عَلَيْهَا مِنَ الْأُمُورِ فَإِذَا جَرَى عَلَى أَحَدِهِمْ مَكْرُوهٌ فَكَأَنَّهُ جَرَى عَلَى جَمِيعِهِمْ...فهم كالجسد الواحد [٣] يقول العلامة أبو المظفر: «إن معنى «ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا» أيقن. [٤]

والخلاصة أنه عبر بالظن دون اليقين، بالرغم من أن عين يقيننا ينصب على طهر أمنا السيدة عائشة الصديقة بنت الصديق، ليتعلم المسلمون بناء اليقين على أدلة وبرهان تتنامى حتى تصل حق اليقين، وهذا عين النَّصفة في التبين والتثبت في مواطن الشك في دنيا الإسلام والمسلمين ... فسبحان المتكلم بالقرآن المعجز به.

****

- **مفردة: [أفضتم]**

في قوله تعالى: [وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ] (١٤)

لماذا « افضتم « دون غيرها مما يقاربها كـ« نشرتم « خضتم « أكثرتم» ..الخ

(١) المفردات للراغب : ٥٢٩.
(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل :٤/ ١٠١.
(٣) مفاتيح الغيب للرازي: ٢٣/ ٣٤١.
(٤) تفسير القرآن للسمعاني: ٣/ ٥١٠.

تبدأ الآية الكريمة بـ[لولا] التي هي امتناع لوجود {وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ} خطابٌ للجميع {وَرَحْمَتُهُ فِى الدنيا} التي من جُملتها الإمهالُ للتَّوبة {والأخرة} التي من جملة الرحمة فيها العفوُ بعد التَّوبةِ {لَمَسَّكُمْ} عاجلاً غير آجل {فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ} وهنا نتوقف عن مفردة « أفضتم « ..ولماذا هي دون غيرها ؟

لأن افضتم تحتوي من صنوف المعاني ما لا تحتويه أيةُ مفردةٍ مقاربة لها أو مماثلة ، فالْإِفَاضَةُ فِي الْقَوْلِ مُسْتَعَارٌ مِنْ إِفَاضَةِ الْمَاءِ فِي الْإِنَاءِ، أَيْ: كَثْرَتِهِ فِيهِ. فَالْمَعْنَى: مَا أَكْثَرْتُمُ الْقَوْلَ فِيهِ وَالتَّحَدُّثَ بِهِ بَيْنَكُم.(٥) ويزيد الراغب الأصفهاني هذه المفردة الإعجازية بيانا وبسطاً فيقول :

« فَاضَ الماء: إذا سال منصبّا. قال تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ} [المائدة: ٨٣]

وأَفَاضَ إناءه: إذا ملأه حتى أساله، وأَفَضْتُهُ. قال تعالى : {وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ} [الأعراف: ٥٠]

ومنه: فَاضَ صدرُهُ بالسّرّ أي: سال، ورجل فَيَّاضٌ، أي: سخيّ، ومنه استعير: أَفَاضُوا في الحديث: إذا خاضوا فيه...قال:{ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ }[النور ١٤] ، {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ } [الأحقاف: ٨] ،وقال ـ أيضا ـ: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} [يونس: ٦١]، وحديث مُسْتَفِيضٌ: منتشر، والْفَيْضُ: الماء الكثير، يقال: إنه أعطاه غيضا من فيض ، أي: قليلا من كثير وقوله: {فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ

(٥) التحرير والتنوير:١٨/ ١٧٧.

عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ } [البقرة: ١٩٨]، وقوله: { ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [البقرة: ١٩٩]أي: دفعتم منها بكثرة تشبيها بِفَيْضِ الماء [١]

لذا فإن مادة فاض في سياق الآية تتميز بكونها تحمل معاني مرهّبة للخائضين في الإفك وحديثه، وتبرز أن القائلين قالة الإفك إنما ملئوا الأسماع همساً وغمزاً ولمزاً ، ونشروا الحديثَ وتطايرَ تطايرَ النار في الهشيم، وانساح حتى فاض، واندفع اندفاع الماء الكثير المغرِق الذي ملأ مكانه وسال في كل وادٍ، وأغرق من أغرق من الخائضين فيه والسامعين له والمتعاطفين معه ...فهل يا ترى نستطيع أن نُنَصِّب مفردة تنساب في معانيها وتتناغم مع الأسلوب الذي قيلت فيه مثل هذه المفردة ؟ كلا وألف كلا.. فسبحان من هذا قوله .. { وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلا} [النساء: ١٢٢]... !!!

****

- مفردة : [بُهْتَانٌ]

في قوله تعالى: {وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ } [النور: ١٦]

عبر القرآن الكريم بمفردة « بهتان « وصفا للإفك المسموع عن حبيبة الله المبرأة ، ولم يقل أيَّ لفظ مقارب؛ لأن البهتان كوصف للإفك يحمل من المعاني والدلالات ما يمكن أن لا نجده في مقارن له .

- فالبهتان « عمود الكذب « [٢]
- والبهتان كذب يبهت سامعه ويدهشه ويحيره لفظاعته ... قال أبو البقاء سمي به

(١) المفردات للراغب: ٦٤٨.
(٢) البديع لابن المعتز: ٢

لأنه يبهت أي: يُسكت لتخيل صحته ثم ينكشفُ عند التأمل[1]

- والبهتان: مواجهة الإنسان بما لم يحبَّه وقد بهته.
- البهتان: فهو الكذب الذي يواجه به صاحبُه على وجه المكابرة له، قال تعالى: {وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا} [النساء: ١٥٦]فإن اليهود كانوا يواجهون مريم – عليها السلام – بالقذف، وينسبونها إلى ما لا ينبغي من القول بالمشافهة.[2]
- ويقال بهتها: قذفها بالباطل وافترى عليها الكذب والاسم (البُهْتَانُ)[3]
- قال أَبو إِسحاقَ: البُهْتانُ : (الباطِلُ الّذي يُتَحَيَّرُ من بُطْلانِه) ، وهو من البَهْتِ ، بمعنى التَّحَيُّر، وبه فُسِّر قولُه عزَّ وجلَّ : { أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً } (النساء : ٢٠) أَي : مُبَاهِتِينَ آثِمِين .
- قال الليث: البَهْت: استقبالك الرَّجل بأَمْرٍ تقْذِفُه به، وهو منه برئ.[4]
- وقال الزجاج: في قول الله جل وعز: (فَبُهِت الذِي كفَرَ): تأويله: انقطع وسكت متحيِّراً عنها، يقال: بُهِتَ الرجل يُبهَت: إذا انقطع وتحيَّر.
- يقال كلمة البهتان أي: الكذب أو الكفر أو مطلق الباطل[5]

من خلال استقراء المعرَّفين للبهتان من أهل اللغة يتبين دقة المفردة ، واستغراقها الإعجازي في إبراز المعني وتصوير الحدث بأبلغية مطلقة لا تتوافر في أي مفردة أخري أو بديل ..فالذين سمعوا الإفك وحديثَة كان عليهم بمجرد طرق أسماعهم أن يكذبوا تكذيبا يقطع كل طريق على من يقترب من عِرض بيت النبوة الطاهر، إذ البهتان ليس

(١) التعاريف للمناوي :ص: ١٤٦.
(٢) الفروق اللغوية: ٢٦٨.
(٣) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير :١/ ٦٣.
(٤) كتاب العين: (٤/ ٣٥) بهت.
(٥) تهذيب اللغة:٢/ ٣١٦ .. بهت .

كذباً ، بل عمود الكذب وجوهره، حيث مواجهة براءة السيدة عائشة بما لا تحبه فضلا عما لا تفعله، وعلى سبيل المفاجأة ، والمكابرة ، والصاق تهمة ببريء ..كل هذا الثراء في هذه المفردة تظهر قصب السبق والتفرد لها عما دونها ، وأن على المسلم إذا فوجئ بمثل هذه الحديث على محصنةٍ مؤمنه أن يقول سبحانك هذا بهتان عظيم.

*****

- مفردة « أبدا «

في قوله تعالى:{يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[النور١٧]

الآية الكريمة تحمل تذكيراً للمؤمنين، ونهيا صريحاً عن العود أبداً لمثل هذا الفعل من الاتهام الكاذب، إن كانت صفة الإيمان قد تحققت فيهم .

والملاحظ أن إعجاز القرآن الكريم أبي إلا أن يذكر مفردة « الأبد « دون غيرها كـ «الـأمد « مثلا ، كذا أبت بلاغة القرآن أن تذكر الآية هكذا « يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» دون ذكر « ابداً» ..فلماذا التأبيد بالذات ؟

الجواب: إن الأمد له محدودية زمانية ومكانية، فالزمانية كما في قوله تعالى {وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد: ١٦] وكقوله تعالى :» {قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا} [الجن ٢٥] أي: أمدا بعيداً في علم الله تعالى .

والمكانية كقوله تعالى {تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا} [آل عمران: ٣٠] [(١)]

لكن الأَبَد: عبارة عن الزَّمان الممتدّ الدائم الذي لا حد له يحده، ولا قيد له يقيده [(٢)]

(١) الفروق اللغوية :٧١.

(٢) المفردات :٨، بصائر ذوي التمييز :٤٨٢، ودراسات لأسلوب القرآن الكريم :٥/ ٤٠٣.

هذا الزمان الذي لا محدودية له، عبر عنه الفيروزآبادي بالدهر [١] وقريب مما سبق يقول المناوي في التعاريف مفرقاً بين الأبد والأزل:» الأبد استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في المستقبل كما أن الأزل استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في الماضي [٢] ويقول صاحب الفروق اللغوية : الأبدي: هو المصاحب لجميع الأزمنة، محققة كانت أو مقدرة في جانب المستقبل إلى غير النهاية. [٣] قال الرُّمَّانيُّ فإذا قلت: لا أكَلِّمُهُ (أبداً) فالأَبَدُ من لَدُنْ تكَلَّمْت إلى آخر عمرك [٤]

ومن قرارات مجمع اللغة العربية بالقاهرة:» شيوع «الأبد» دالة على الزمن المستقبل إلى قيام الساعة؛ ولذلك يقابله «الأزَل»، فالأبدي المضاف إلى المستقبل غير المحدود، والأزليّ القديم الممعن في القدم إلى بدء الزمان، وأن المأثور من الاستعمال الفصيح إيراد الأبد ظرفاً منكراً لتأكيد النفي في المستقبل، وكذلك لتأكيد الإثبات [٥]

ومما سبق يتضح أن البيان القرآني أتي بمفردة « أبداً» ليحذِّرَ بقوة، ويرهِّبَ بصرامة المؤمنين من أن يلجوا مولج الإفك طوال حياتهم إلى أن يلقوا ربهم، فينتشر الطهر، وتنظَّف الألسنة، ويسود العدل والإنصاف ـ خاصة ما يتصل بسمعة البيوت، وشرف المسلمات المحصنات ، وهذا من أهم أسباب التآخي والود والوئام وقوة المجتمع المسلم...وهذا ـ أيضاً ـ من أعظم المقاصد الإعجازية للقرآن الكريم.

****

- **مفردة « الفاحشة»**

(١) القاموس المحيط : ٣٣٧[أبد]
(٢) التعاريف: ٢٩.
(٣) أبو هلال العسكري: ١١.
(٤) المصباح المنير : أبد ١/ ١.
(٥) قرارات مجمع اللغة العربية بالقاهرة: ٢/ ٣٣.

في قوله تعالى{إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النور: ١٩]

لماذا هذا التهديد وذاك الوعيد على عمل من أعمال القلوب وهو أَنْ يَشِيعَ خَبَرُ الفاحشة في مجتمع المؤمنين الطاهر الزكي ؟ ولماذا الفاحشة بالذات هنا وليس غيرها من الألفاظ القريبة منها كالذنب والخطيئة والإثم والكبيرة ..الخ ؟ لا شك أن وجهاً إعجازياً يخص هذه القضية البيانية في هذه الآية الكريمة وفي هذا السياق البياني المعجز بالتعبير بكلمة الفاحشة دون غيرها.

الجواب يكمن في أن الفاحشة تلك:

- الخَصلةُ القبيحة، والتي هي الفريةُ، والرَّميُ بالزِّنا، أو نفسُ الزِّنا [٦]
- التي هي فِي كَلَام الْعَرَب مَا تَجَاوَزَ حَدَّ الْآدَاب وَعَظُمَ إِنْكَارُهُ»[٧]
- تلك التي هي" أَقبحُ أنواع المعاصي وأعظمُها مساءةً» [٨]
- بلفظ الزمخشري الْفَواحِشَ: " ما تفاحش قبحه ــ أي: تزايد ـ وقيل هي ما يتعلق بالفروج[٩]
- " أَقْبَحُ أَنْوَاعِ السوء، وَهُوَ الَّذِي يُسْتَعْظَمُ وَيُسْتَفْحَشُ من المعاصي ، وهو الْفَعْلَةُ الْبَالِغَةُ حَدًّا عَظِيمًا فِي الشَّنَاعَةِ. [١٠]
- ما أنكره الشرع والعقل والطبع، ...وعظم قبحه من الأقوال والأفعال[١١]

(٦) المفردات في غريب القرآن: ٦٢٦، إرشاد العقل السليم :٦/ ١٦٣. وروح المعاني :٩/ ٣١٨.
(٧) التحرير والتنوير :٢/ ١٠٥.
(٨) إرشاد العقل السليم: ١/ ١٨٨.
(٩) الكشاف: ٢/ ١٠١.
(١٠) التحرير والتنوير :١٨/ ١٨٤.
(١١) السراج المنير: ٣/ ٥٤٥.

- "كُلُّ ما نَهَى اللهُ عَزَّ وجَلَّ عَنْهُ فَاحِشَةٌ ..وقِيلَ : كُلُّ أَمْرٍ لا يَكُونُ مُوَافِقاً لِلْحَقِّ والقَدْرِ[1]

إذا كان أمر الفاحشة بهذا الهول من القبح والمعصية والشناعة والسوء والإنكار، فإننا أمام تحذير وترهيب لا يتعامل مع المحسوسات بل مع أمور القلب « يحبون « مع الحب الذي يُعَذَّبُ صاحبه به عندما يشجع الفاحشة أو يريد ذيوع صيتها في مجتمع البشر عموما والمسلمين خصوصاً ..ولله در الفخر الرازي عندما يقول :» «اعْلَمْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمَّا بَيَّنَ مَا عَلَى أَهْلِ الْإِفْكِ وَمَا عَلَى مَنْ سَمِعَ مِنْهُمْ، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَمَسَّكُوا بِهِ مِنْ آدَابِ الدِّينِ أَتْبَعَهُ بِقَوْلِهِ:» إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ» لِيُعْلَمَ أَنَّ مَنْ أَحَبَّ ذَلِكَ فَقَدْ شَارَكَ فِي هَذَا الذَّمِّ، كَمَا شَارَكَ فِيهِ مَنْ فَعَلَهُ، وَمَنْ لَمْ يُنْكِرْهُ، وَلِيُعْلَمَ أَنَّ أَهْلَ الْأَفْكِ كَمَا عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَةُ فِيمَا أَظْهَرُوهُ، فَكَذَلِكَ يَسْتَحِقُّونَ الْعِقَابَ بِمَا أَسَرُّوهُ مِنْ مَحَبَّةِ إِشَاعَةِ الْفَاحِشَةِ فِي الْمُؤْمِنِينَ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ سَلَامَةِ الْقَلْبِ لِلْمُؤْمِنِينَ كَوُجُوبِ كَفِّ الجوارح والقول عما يَضُّر بهم [2] **فالتعبير بكلمة فاحشة يحمِّل كل من قال أو سمع دون نكير ، أو ردد دون تثبت نصيباً من العذاب العظيم الذي ختمت به الآية الكريمة ، ويؤيد هذا ما قاله د. محمد حسن جبل ـ رحمه الله ـ في المعنى المحوري لتركيب (فحش): بأنه: «صدور ما يفشو استقباحُه أو حِدّةُ وَقْعِه على الحسّ من قول أو فعل: كالبذاء المتعمَّد المتزيّد... ومن هذا دل على ما هو حادّ الوقع على النفس شائع الاستقباح لدى الناس، كالزنى: {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً} [الإسراء: ٣٢]، واللواط {أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ٨٠] والخلاصة أن لفظ الفاحشة وجمعها الفواحش تعني ما كان**

(١) تاج العروس :١٧/ ٢٩٧. [فحش]
(٢) مفاتيح الغيب :٢٣/ ٣٤٥.

شائعَ الاستقباح عند الشرع، كما مُثِّل. وكلها في القرآن بهذا المعنى» [1]

ومن تتمة إعجاز المفردة المذكورة سبقها بمفردة «تشيع» التي هي من الإشاعة وهي تناقل الأخبار الكاذبة وتفرقها بسرعة، وأصل «تشيع» :»تَفَرُّق الشيء المجتمع إلى تجمعات صغيرة بتشعث أي: عدم انتظام»[2] وقد آثر القرآن التعبير بها لتناسب مفردة «الفاحشة» فيتكامل المعني ويتوافق.

فسبحان الله العظيم ..

*****

- مفردة [زَكَى] في قوله تعالى:

{ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ... } [النور: ٢١]

يحكي بيان الآية الكريمة أنه لولا تفضل الله ـ تعالى ـ علي المؤمنين الذين تورطوا في حادثة الإفك بالتَّوفيقُ للتوبة الممحصة للذنوب وبشرع الحُدودِ المُكفِّرةِ لها ما زكى منهم أحد أبدا... ولنا أن نسأل: لماذا [زكي] وليس غير هذه المفردة كالطهر ونحوه ؟

الجواب أن «المعنى المحوري لـ» زكى « في القرآن يدور حول زيادة الشيء في ذاته مع جودة نوعه كالأرض الزكية تُنَمَّى الزرع مع كونه جيدًا بين جنسه. ..ويستعمل تركيب زكى في الطهارة المادية كقول الإمام محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم «زكاة الأرض يُبْسها «يريد طهارتها من النجاسة كالبول وأشباهه أن يجف ويذهب أثره. ومن القريب لذلك قولهم «زكّى الشيء: أصلحه «.[3]

فمن ذلك الأصل «الزكاة: ما أخرجته من مالك لتطهره به «فمعناها يجمع الزيادة

(١) المعجم الاشتقاقي المؤصل :٣/ ١٦٣٧.
(٢) المعجم الاشتقاقي :٢/ ١١٤١.
(٣) السابق :٢/ ٩٠٧

(القدر الذي يُخرج، والأصل فيه أن يكون فضلًا أي: زائدًا عن الحاجة، وأيضًا فإن المال الأصلي يُبارَك - أي ينمو وبطول نفعُه - بإخراج زكاته، كما يجمع الجودة، وهي أنها تطهِّر المال وصاحبه من التبعة الدينية فيه. .. وسائر ما في القرآن من مفردات التركيب هو بمعنى طهارة النفس...قال تعالى {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا} [الشمس: ٩]. وقوله تعالى{فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ} [النجم: ٣٢]. أي: لا تنسبوها إلى الزكاء أي: الصلاح وزيادة الإيمان تمدُّحًا) {هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم: ٣٢] وقال تعالى {وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا} [مريم: ١٣] الزكاة: التطهير والبركة والتنمية في وجوه الخير والبر. أي جعلناه مباركًا للناس يهديهم. (١)

وعلى ذلك فسر الفخر الآية بقوله:» وَاعْلَمْ أَنَّ الزَّكِيَّ مَنْ بَلَغَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ مَبْلَغَ الرِّضَا وَمِنْهُ يُقَالُ زَكَى الزَّرْعُ، فَإِذَا بَلَغَ الْمُؤْمِنُ مِنَ الصَّلَاحِ فِي الدِّينِ إِلَى مَا يَرْضَاهُ اللَّهُ ـ تَعَالَى ـ سُمِّيَ زَكِيًّا» (٢) ويقول ابن عطية في محرره: وقرأ الجمهور «ما زكى» ، بتخفيف الكاف أي: ما اهتدى ولا أسلم ولا عرف رشدا، وقرأ أبو حيوة والحسن «زكّى» بشد الكاف أي: تزكيته لكم وتطهيره وهدايته إنما هي بفضله لا بأعمالكم وتحرزكم من المعاصي، ثم ذكر تعالى أنه «يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ» ممن سبقت له السعادة وكان عمله الصالح أمارة على سبق السعادة له،(٣)

إذاً فالمفردة الإعجازية التي نحن بصددها جمعت الطهر، والنماء الإيماني بعد الكبوة، وبلوغ طاعة الله تعالى مبلغ الرضا منه سبحانه، والإصلاح لما فسد ..والبركة والهداية، والإسلام والوصول إلى طريق الرشد.. كل هذا من فضل الله على المتورطين في حادثة

(١) السابق: ١/ ٥٨٩.
(٢) مفاتيح الغيب: ٢٣/ ٣٤٧.
(٣) المحرر الوجيز: 172/ 4.

الإفك لينهضوا بعد تعثر وإخلاد إلى الهوى وسوء الظن...

****

- مفردة [الفضل]

في قوله تعالى{وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [النور: ٢٢]

لماذا التعبير بـ «أولو الفضل» ، وليس غير الفضل من المقارب كالغنى أو اليسار أو أو، لأن المعنى المحوري لـ «فضل» زيادةٌ من مادة الشيء متميزةٌ عنه [١] **ويقول الراغب: «الفَضْلُ: الزّيادة عن الاقتصاد»**[٢] **وهذا الوصف بموجب سبب النزول خص أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ وعم كل من كان على شاكلته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فقد خص الله رفيق المصطفى** ﷺ في الغار بالفضل الذي هو الغنى واليسار متساوقاً مع سعة الصدر والحلم والصفح الجميل، حيث تناسى آلامه المبرِّحة جراء حديث مسطح ابن خالة الصديق في حق ابنة الصديق، وتميز عنه بأن اعطاه، وأحسن إليه ، وأمده بالرغم من كل طعناته النافذة في شرف حبيبة الله المبراة .. يقول ابن كثير :» { أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ } أي: الطَّول والصدقة والإحسان.. { وَالسَّعَة } أي: الجِدَة { أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } أي: لا تحلفوا ألا تصلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين. وهذه في غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام؛ ولهذا قال: { وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا } أي: عما تقدم منهم من الإساءة والأذى، وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم.

(١) المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم : 2/ 317.
(٢) المفردات: 639.

وهذه الآية نزلت في الصدِّيق، حين حلف ألا ينفع مِسْطَح بن أثاثة بنافعة بعدما قال في عائشة ما قال... فلما أنزل الله براءةَ أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت، وتاب الله على مَن كان تكلم من المؤمنين في ذلك، وأقيم الحد على مَن أقيم عليه - شَرَع تبارك وتعالى ـ وله الفضل والمنة ـ يعطفُ الصدِّيق على قريبه ونسيبه، وهو مِسْطَح بن أثاثة، فإنه كان ابن خالة الصديق، وكان مسكينًا لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها، وضُرب الحد عليها. وكان الصديق ـ رضي الله عنه ـ معروفًا بالمعروف، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب. فلما نزلت هذه الآية إلى قوله: { أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } أي: فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك نغفر لك، وكما تصفح نصفح عنك. فعند ذلك قال الصديق: بلى، والله إنا نحب - يا ربنا - أن تغفر لنا. ثم رَجَع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا، في مقابلة ما كان قال: والله لا أنفعه بنافعة أبدًا، فلهذا كان الصدّيق هو الصديق ـ رضي الله عنه وعن بنته ـ» (١)

ولئن كان ابن عاشور قد نص على أن « الْفَضْلُ: أَصْلُهُ الزِّيَادَةُ فَهُوَ ضِدُّ النَّقْصِ، وَشَاعَ إِطْلَاقُهُ عَلَى الزِّيَادَةِ فِي الْخَيْرِ وَالْكَمَالِ الدِّينِيِّ وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا. » (٢) فإني أقول: إن هذا ما تم على يد أبي بكر الصديق ، حيث زاد في الكرم والعطاء غافراً ما كان من نقص من مسطح، فكان الخير والكمال الديني والدنيوي لأبي بكر على مسطح وغيره ممن دونه .

يقول الفخر :» أَجْمَعَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ قَوْلِهِ: أُولُوا الْفَضْلِ أَبُو بَكْرٍ، وَهَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ كَانَ أَفْضَلَ النَّاسِ بَعْدَ الرَّسُولِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ

(١) تفسير القرآن العظيم: 31/ 6.
(٢) التحرير والتنوير: 189/ 18.

لِأَنَّ الْفَضْلَ الْمَذْكُورَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَإِمَّا فِي الدِّينِ.. والْمُرَادُ هنا الْفَضْلَ فِي الدِّينِ، ..وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ ـ تَعَالَى ـ وَصَفَ أَبَا بَكْرٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِصِفَاتٍ عَجِيبَةٍ دَالَّةٍ عَلَى عُلُوِّ شَأْنِه فِي الدِّينِ منها: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ كَنَّى عَنْهُ بِلَفْظِ الْجَمْعِ وَالْوَاحِدُ إِذَا كُنِّيَ عَنْهُ بِلَفْظِ الْجَمْعِ دَلَّ عَلَى عُلُوِّ شَأْنِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ] [الْحِجْرِ: ٩] ، [إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ] [الْكَوْثَرِ: ١] فَانْظُرْ إِلَى الشَّخْصِ الَّذِي كَنَّاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَعَ جَلَالِهِ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ كَيْفَ يَكُونُ عُلُوُّ شَأْنِه!

ومنها: أَنَّ الظُّلْمَ مِنْ ذَوِي الْقُرْبَى أَشَدُّ، قَالَ الشَّاعِرُ:

وَظُلْمُ ذَوِي الْقُرْبَى أَشُدُّ مَضَاضَةً ... عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقْعِ الْحُسَامِ الْمُهَنَّدِ

وَأَيْضًا فَالْإِنْسَانُ إِذَا أَحْسَنَ إِلَى غَيْرِهِ فَإِذَا قَابَلَهُ ذَلِكَ الْغَيْرُ بِالْإِسَاءَةِ كَانَ ذَلِكَ أَشَدَّ عَلَيْهِ مِمَّا إِذَا صَدَرَتِ الْإِسَاءَةُ مِنَ الْأَجْنَبِيِّ، وَالْجِهَتَانِ كَانَتَا مُجْتَمِعَتَيْنِ فِي حَقٍّ مِسْطَحٍ ، ثُمَّ إِنَّهُ آذَى أَبَا بَكْرٍ بِهَذَا النوعِ مِنَ الْإِيذَاءِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ أَنْوَاعِ الْإِيذَاءِ، فَانْظُرْ أَيْنَ مَبْلَغُ ذَلِكَ الضَّرَرِ فِي قَلْبِ أَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ إِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَمَرَهُ بِأَنْ لَا يَقْطَعَ عَنْهُ بِرَّهُ وَأَنْ يَرْجِعَ مَعَهُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِحْسَانِ، وَذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ الْمُجَاهَدَاتِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا أَصْعَبُ مِنْ مُقَاتَلَةِ الْكُفَّارِ لِأَنَّ هَذَا مُجَاهَدَةٌ مَعَ النَّفْسِ وَذَلِكَ مُجَاهَدَةٌ مَعَ الْكَافِرِ وَمُجَاهَدَةُ النَّفْسِ أَشَقُّ.

ومنها: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ أَبَا بَكْرٍ بِذَلِكَ لَقَّبَهُ بِـ "أُولِي الْفَضْلِ" وَأُولِي السَّعَةِ كَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ أَنْتَ أَفْضَلُ مِنْ أَنْ تُقَابِلَ إِسَاءَتَهُ بِشَيْءٍ، وَأَنْتَ أَوْسَعُ قَلْبًا مِنْ أَنْ تُقِيمَ لِلدُّنْيَا وَزْنًا، فَلَا يَلِيقُ بِفَضْلِكَ وَسَعَةِ قَلْبِكَ أَنْ تَقْطَعَ بِرَّكَ عَنْهُ بِسَبَبِ مَا صَدَرَ مِنْهُ مِنَ الْإِسَاءَةِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْخِطَابِ يَدُلُّ عَلَى نِهَايَةِ الْفَضْلِ وَالْعُلُوِّ فِي الدِّينِ.

ومنها: أَنَّ الْأَلِفَ وَاللَّامَ يُفِيدَانِ الْعُمُومَ ، فَالْأَلِفُ وَاللَّامُ فِي "الْفَضْلِ وَالسَّعَةِ" يَدُلَّانِ عَلَى أَنَّ كُلَّ الْفَضْلِ وَكُلَّ السَّعَةِ لِأَبِي بَكْرٍ كَمَا يُقَالُ فُلَانٌ هُوَ الْعَالِمُ يَعْنِي قَدْ بَلَغَ فِي الْفَضْلِ

إِلَى أَنْ صَارَ كَأَنَّهُ كُلُّ الْعَالَمِ وَمَا عداه كالعدم، وهذا ـ أيضا ـ مَنْقَبَةٌ عَظِيمَةٌ. (١)

والملاحظ أن هذه المفردة [الدرة اليتيمة] {أولو الفضل] جاءت كل معانيها متأثرة بسياقها وسبب نزولها ، وقضية حاثة الإفك وما تخلف عنها من ضرر، فكان غيرها دونها بلاغة وفصاحة وإعجاز .

- مفردة : « العفو «

في قوله تعالى { وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور: ٢٢]

لماذا العفو ومن بعده الصفح؟ وقد يفسر العفو بالصفح، لكن هذا ينضوي تحت القاعدة التي قال بها الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ ومن بعده علماء التفسير : «إذا اجتمعا افترقا ، وإذا افترقا اجتمعا» (٢)

- «فالعَفْو وهو التَّجاوزُ عن الذَّنْب وتركُ العِقَاب عليه وأصلُه المَحْوُ والطَّمْسُ، ومنه قولُهم : عفَتِ الريحُ الأثَر إذا طَمَسَته وَمَحَتْه، وهو من أبْنيةِ المُبَالغة . يقال: عفا يَعْفُو عَفْواً فهو عافٍ وعَفُوٌّ ..،..والمُعافاة: هي أن يُعافِيكَ اللهُ من الناس ويُعافِيَهم منك: أي يُغْنِيك عنهم ويُغْنيهم عنك ويَصْرف أذاهُم عنك وأذَاكَ عنهم .... وعفا الشيء يَعْفُو إذا صفا وخُلَص (٣)

(١) مفاتيح الغيب: ٢٣/ ٣٥١.

(٢) فيض القدير للمناوي:١/ ٤٩٤..، وأضواء البيان:٥/ ٧٧...يقول الشنقيطي :" وَالْقَاعِدَةُ عِنْدَ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ أَنَّ الْفَقِيرَ وَالْمِسْكِينَ مثلا إِذَا اجْتَمَعَا افْتَرَقَا، وَإِذَا افْتَرَقَا اجْتَمَعَا" هذا مذهب الجمهور.

(٣) تاج العروس : ٣٩/ ٦٧. ..والنهاية في غريب الأثر :٣/ ٥٢٤...والمفردات للراغب: ١٧٥.

• "وأعْفاهُ من الأمْرِ : بَرَّأَهُ .... والمُعافاةُ : أن يُعافِيَكَ اللهُ من الناسِ ويُعافِيَهُمْ منكَ" (١)

• "..والعَفْو لا يكونُ إلاَّ عن ذَنْبٍ، وأَصْلُ مَعْناه: التَّرْكُ، وعليه تَدُورُ مَعانِيه، فيُفَسَّرُ في كلِّ مقام بما يُناسِبُه مِن تَرْكِ عقابٍ، وعَدَم إلْزامٍ مَثلاً؛ وفي كَلامِ المُفسِّرين وأَرْبابِ الحَواشي إيماءٌ لذلكَ ..والصَّفْحُ تَرْكُ التَّأْنيبِ، وهو أَبْلَغُ من العَفْوِ، فقد يَعْفُو ولا يصفح وأمَّا العَفْوُ فهو القَصْدُ لتَناوُلِ الشيءِ، هذا هو المَعْنى الأَصْلي .. قالَ الرَّاغبُ: فمَعْنى عَفَوْتُ عنْكَ كأَنَّهُ قَصَد إزالَةَ ذَنْبه صارفاً عنه» (٢)

• قال الفخر بناء على ما تقدم " الْعَفْوُ وَالصَّفْحُ عَنِ الْمُسِيءِ حَسَنٌ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ، وَرُبَّمَا وَجَبَ ذَلِكَ وَلَوْ لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ لَكَفَى، أَلَا ترى إِلَى قوله تعالى:" أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ" [النُّور: ٢٢] فَعَلَّقَ الْغُفْرَانَ بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ ...إذ أَنَّ الْعَفْوَ قَرِينَةُ التَّقْوَى وَكُلُّ مَنْ كَانَ أَقْوَى فِي الْعَفْوِ كَانَ أَقْوَى فِي التَّقْوَى، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ كَانَ أَفْضَلَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ» [الْحُجُرَاتِ: ١٣] وَمِنْهَا: أَنَّ الْعَفْوَ وَالتَّقْوَى مُتَلَازِمَانِ فَلِهَذَا السَّبَبِ اجْتَمَعَا فِيهِ، أَمَّا التَّقْوَى فَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى [اللَّيْلِ: ١٧] «(٣)

• وبعد تحليل أهل اللغة وأهل التفسير نجد أنفسنا أمام مفردة تشع كل معاني الإنسانية التي أمرنا الله أن نتسنمها بـ : التَّجاوزُ عن الذَّنْب وتركُ العِقَاب... المَحْوُ والطَّمْسُ لما فات وبَدَرَ... بل بالعفو والصفح نضع المتهم موضع البريء مع صفاء النفس له ..والعَفْو لا يكونُ إلاَّ عن ذَنْبٍ... والصَّفْحُ تَرْكُ التَّأْنيبِ، وهو أَبْلَغُ من العَفْوِ...وأن الآية يلاحظ فيها الأمر بالترقي من درجة إلى درجة اعلي ن حيث أمرنا أولا بالعفو ثم

(١) القاموس المحيط : ١٦٩٣ عفو والمخصص: ٤/ ٥٤.
(٢) تاج العروس : ٣٩/ ٦٧.
(٣) مفاتيح الغيب: ٢٣/ ٣٥٢.

بالصفح .كل هذا قد امتثله خليفة رسول الله وأرجع كل سليب من معونة كانت لمن ولغ في شرفه وآذاه في حبيبته وابنته ، وزوج نبي الأمة ـ صلى الله عليه وسلم.

- مفردة [يرمون]

في قوله تعالى{إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [النور: ٢٣]

- لماذا التعبير عن الْقَذْف والسب والبهتان والكذب بالرَّمْي ؟
- لأن اتهام المصونات العفيفات بالفاحشة هو من قبيل الرجم والرمي بالتهمة والظّنة ، وهو من باب قوله تعالى:" {وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ}[سبأ: ٥٣] وَالرَّمْيُ حَقِيقَتُهُ: قَذْفُ شَيْءٍ مِنَ الْيَدِ. وَشَاعَ اسْتِعْمَالُهُ فِي نِسْبَةِ فِعْلٍ أَوْ وَصْفٍ إِلَى شَخْصٍ. (١) وكما يكون «الرَّمْيُ في الأعيان كالسّهم والحجر، نحو:[وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى][الأنفال ١٧] ، يكون في المقال، كناية عن الشّتم كالقذف، نحو:[وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ][النور ٦] ، [يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ] «(٢) واستعير الرمي للشتم بفاحشة الزنا لكونه جناية بالقول كما قال النابغة: وجُرح اللسان كجرح اليد، ويسمى الشتم بهذه الفاحشة قذفا، والمراد بالمحصنات النساء، وخصصهن بالذكر لأن قذفهن أشنع والعار فيهن أعظم، ويلحق الرجال بالنساء في هذا الحكم بلا خلاف بين علماء هذه الأمة. (٣) «والرمي مجاز عن الشتم» (٤)
- والسياق العام ودلالته يظهر أن الرمي هنا هو بالفاحشة والزنا لا غيره ذلك،

(١) التحرير والتنوير: ١٨/ ١٥٨.
(٢) المفردات: ٣٦٦.
(٣) إعراب القرآن وبيانه : ٦/ ٥٦٢.
(٤) روح المعاني: ٩/ ٢٨٦.

حيث جو سورة النور من ناحية، وتقدم الرمي ـ من قبل ـ في أول السورة عقيب ذكر الزنا{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ } [النور: ٤] وتكرره هنا وهو محاط بالإفك، وكون اللاحق أتى عن الغافلات المؤمنات، يقول ابن عاشور: « والْغافِلاتِ هُنَّ اللَّاتي لَا عِلْمَ لَهُنَّ بِما رُمِينَ بِهِ. وَهَذَا كِنَايَةٌ عَنْ عَدَمِ وُقُوعِهِنَّ فِيمَا رُمِينَ بِهِ لِأَنَّ الَّذِي يَفْعَلُ الشَّيْءَ لَا يَكُونُ غَافِلًا عَنْهُ فَالْمَعْنَى: إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ كَذِبًا عَلَيْهِنَّ، فَلَا تَحْسَبِ الْمُرَادَ الْغَافِلَاتِ عَنْ قَوْلِ النَّاسِ فِيهِنَّ. وَذَكَرَ وَصْفَ «الْمُؤْمِناتِ» لِتَشْنِيعِ قذف الَّذين يقذفونهن كَذِبًا ؛لِأَنَّ وَصْفَ الْإِيمَانِ وَازِعٌ لَهُنَّ عَنِ الْخَنَى.

- وَقَوْلُهُ: «لُعِنُوا» إِخْبَارٌ عَنْ لَعْنِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ بِمَا قُدِّرَ لَهُمْ مِنَ الْإِثْمِ وَمَا شُرِعَ لَهُمْ.
- وَاللَّعْنُ: فِي الدُّنْيَا التَّفْسِيقُ، وَسَلْبُ أَهْلِيَّةِ الشَّهَادَةِ، وَاسْتِيحَاشُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ، وَحَدُّ الْقَذْفِ، وَاللَّعْنُ فِي الْآخِرَةِ: الْإِبْعَادُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْعَذَابُ الْعَظِيمُ: عَذَابُ جَهَنَّمَ ».[1]

ونستخلص مما تقدم أنه كما أن رمي الحجر بحي يجرحه، ويسل دمه ، ويؤذيه في جسده، ويؤلمه إيلاما حسياً يتوجع منه ويتأوه، فإن الرمي بكلمة السوء أشدُّ إيلاما، وأكثر فتكاً بسمعة العفيفات المصونات الغافلات عن الحرام .. بل إن الجرح الحسي قد يندمل وتخفي معالمه القديمة أما كلمة السوء فلا ..من هنا كانت هذه المفردة المعجزة دون غيرها....

******

- مفردة الثالثة عشرة [دينهم]

في قوله تعالى{يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ}[النور:

(١) التحرير والتنوير: ١٨/ ١٩١.

٢٥] لماذا دينهم وليس حسابهم أو عقابهم؟

عندما نتفيأ ظلال أقوال أهل اللغة والتفسير نجد أن:

• «الدال والياء والنون أصلٌ واحد إليه يرجع فروعُه كلُّها. وهو جنسٌ من الانقياد والذُّل. ..ومنه: { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ } [الفاتحة ٤] أي يوم الحكم. وقال قومٌ: الحساب والجزاء. وأيُّ ذلك كان فهو أمرٌ يُنقاد له. وقال أبو زَيد: دِينَ الرّجُل يُدان، إذا حُمِل عليه ما يَكره، والدَّيْن من قياس الباب المطّرد، لأنّ فيه كلَّ الذُّلّ والذِّل. ولذلك يقولون «الدَّين ذُلٌّ بالنّهار، وغَمٌّ بالليل».[١]

• ويقول الراغب :" والدِّينُ يقال للطاعة والجزاء، واستعير للشريعة، والدِّينُ كالملّة، لكنّه يقال اعتباراً بالطاعة والانقياد للشريعة، قال تعالى "إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ" [آل عمران ١٩] [٢]

• يقول الدكتور طنطاوي : والمراد بـ "الدين" في الآية الكريمة :" الجزاء الذى يستحقونه بسبب آثامهم . ويوفيهم: من التوفية بمعنى إعطاء الشيء كاملا ووافيا . وقوله : " يومئذ " ظرف ليوفيهم، أي: في هذا اليوم العظيم وهو القيامة . الذى تشهد فيه الجوارح على صاحبها ، يجازى الله - تعالى - هؤلاء الفاسقين الجزاء الحق العادل الذى يستحقونه بسبب رميهم النساء المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة .[٣]

• ويقول الشيخ المظهري:" دِينَهُمُ الْحَقَّ" أي: جزاءهم الواجب وقيل حسابهم العدل[٤]

(١) مقاييس اللغة:٢/ ٢٦٢.
(٢) المفردات:٣٢٣.
(٣) التفسير الوسيط : ٤/ ٦٣.
(٤) التفسير المظهري :٦/ ٤٨٤.

• ويقول الفخر: لَا شُبْهَةَ فِي أَنَّ نَفْسَ دِينِهِمْ لَيْسَ هُوَ الْمُرَادُ؛ لِأَنَّ دِينَهُمْ هُوَ عَمَلُهُمْ. بَلِ الْمُرَادُ جَزَاءُ عَمَلِهِمْ، وَالدِّينُ بِمَعْنَى الْجَزَاءِ مُسْتَعْمَلٌ كَمَا فِي قَوْلِهِ:» مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ» [الْفَاتِحَة: ٤] و كَقَوْلِهِمْ:» كَمَا تَدِينُ تُدَانُ»، وَقِيلَ الدِّينُ: هُوَ الْحِسَابُ كَقَوْلِهِ {ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} [التوبة: ٣٦]أَيِ: الْحِسَابُ الصَّحِيحُ وَمَعْنَى قَوْلِهِ: الْحَقَّ أَيْ: أَنَّ الَّذِي نُوَفِّيهِمْ مِنَ الْجَزَاءِ هُوَ الْقَدْرُ الْمُسْتَحَقُّ؛ لِأَنَّهُ الْحَقُّ وَمَا زَادَ عَلَيْهِ هُوَ الْبَاطِلُ، وَقُرِئَ الْحَقَّ بِالنَّصْبِ صِفَةً لِلدِّينِ [1]

وبعد استقراء ما قاله أهل العلم من اللغويين والمفسرين نجد أن المشهد متصل بيوم القيامة " يومئذ يوفيهم " وهذا يعني العود لما قاله ابن فارس من أن أصل المادة يدور حول الاصطحاب والانقياد والطاعة والذل، وهذه أبرز سمات يوم الدين على العصاة المتجاوزين، بنص القرآن الحكيم :" {وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا } [الكهف: ٤٨] هذا العرض الجبري لكل الخلائق ، يوزن فيه العمل ، ويحاسب عليه صاحبه، ويجازي عليه بصفة عامة، أما سياقنا ـ الذي نحن بصدده ـ فإنه يحمل وعيداً شديداً للأفاكين، لأنه دين في ذمتهم لابد أن يُقْضَى منهم، ويقتص بموجبه ممن خاض في العرض الشريف، وهذا ما لا تشعه مفردة أخرى لو كانت مكان هذه المفردة البليغة.

(١) مفاتيح الغيب: ٢٣/ ٣٥٤.

الخاتمة

بعد سياحة علمية في ربوع المفردة القرآنية وإشعاعاتها الإعجازية من خلال الآيات التي حكت حادثة الإفك من سورة النور، استطيع أن أختم ورقتي البحثية بما يلي:

١ــ أجزم بأن كل مفردات القرآن الكريم تستحق من العلماء الوقوف طويلاً لاستنطاق معانيها المتأنية التي لا تظهر إلا بعد جهد جهيد للباحث الذي يكون كالنحلة بين زهور الدراسات اللغوية والقرآنية والمعرفية .

٢ـ أن المفردة القرآنية لا يتوقف عطاؤها على اللغة فحسب، بل يتنامى العطاء من خلال دراسة السياق والمناسبة،وسبب النزول، والمناخ الاجتماعي بكل أطيافه أثناء نزول القرآن العظيم.

٣ـ إن دراسة المفردة التي تم اختيارها من حادثة الإفك ـ فيما أتيح لي من مساحة مكانية ـ جعلتنا نشعر وكأننا أمام مشهد محسوس ملموس متكامل له بداية ونهاية، وتكاد المفردة تنطق بالمشهد رأي العين.

٤ــ الجزم بأنه لا يمكن بحال وضع مفردة في القرآن مكان أخرى، وأنه يستحيل الترداف في القرآن الكريم ولا أؤمن بان حروف الجر مثلا ينوب بعضها مناب بعض.

٥ـ علمتنا المفردة القرآنية الإعجازية أن القرآن ليس شعراً ولا نثراً، وهو من سدى ولحمة العربية إلا أنه صنف قائم بذاته هو القرآن كلام الله وحده لا شريك له.

المراجع

ـ إرشاد العقل السليم لبي السعود / دار إحياء التراث العربي – بيروت

ـ أضواء البيان للشنقيطي دار الفكر بيروت – لبنان/ ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ مـ

ـ إعجاز القرآن للرافعي / دار الكتاب العربي – بيروت/ ط:الثامنة – ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٥ م

ـ إعراب القرآن وبيانه محيي الدين درويش/ دار اليمامة – دمشق – بيروت / الرابعة ، ١٤١٥ هـ

ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل محمد عبد الرحمن المرعشلي / دار إحياء التراث العربي – بيروت

ـ البديع لابن المعتز/ دار الجيل/ الطبعة الأولى ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م

ـ بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادى ، ت/ محمد علي النجار / الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة

ـ تاج العروس للزبيدي مجموعة من المحققين / الناشر: دار الهداية/ دت .

ـ التحرير والتنوير لابن عاشور / دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس – ١٩٩٧ م

ـ التعاريف للمناوي/ دار الفكر المعاصر/ دار الفكر – بيروت/ دمشق/ ط الأولى ، ١٤١٠

ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير / دار الكتب العلمية بيروت / الأولى – ١٤١٩ هـ .

ـ تفسير القرآن للسمعاني / دار الوطن، الرياض / الأولى، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م

ـ التفسير القيم لابن القيم . دار الرغائب .الحلمية القاهرة دت.

ـ تهذيب اللغة للأزهري / ت: محمد عوض مرعب/ دار إحياء التراث العربي – بيروت

ـ حاشية الطيبي على الكشاف/ تحقيق: إياد الغوج/ جائزة دبي / الأولى، ١٤٣٤ هـ – ٢٠١٣ م

ـ دراسات لأسلوب القرآن الكريم عبد الخالق عضيمة/ دار الحديث، القاهرة/ د ت.
ـ روح المعاني للآلوسي دار إحياء التراث العربي – بيروت / د ت.
ـ زهرة التفاسير محمد أبو زهرة / دار الفكر العربي بمصر / د ت.
ـ السراج المنير للخطيب الشربيني / دار الكتب العلمية ـ بيروت/ د ت.
ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفي للقاضي عياض. عالم الفكر بيروت/ ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨ م
ـ صحيح البخاري / دار طوق النجاة / الأولى، ١٤٢٢هـ/ شرح وتعليق د. مصطفى ديب البغا .
ـ صحيح مسلم / الحلبي بمصر / ط الأولى – ١٤١٨ هـ
ـ عناية القاضي للشهاب الخفاجي/ دار صادر – بيروت/ د ت.
ـ الفروق اللغوية أبو هلال العسكري/ مدبولي بالقاهرة دت .
ـ الفروق اللغوية للعسكري/ حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم/ دار العلم والثقافة القاهرة د ت.
ـ فيض القدير للمناوي / دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الاولى ١٤١٥ ه – ١٩٩٤ م
ـ القاموس المحيط للفيروزآبادي / دار النخبة / بيروت الولي ١٩٩٥م
ـ قرارات مجمع اللغة العربية بالقاهرة / طبع المجمع / د ت.
ـ كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي/ دار ومكتبة الهلال/ ت: د.المخزومي ود.السامرائي د ت.
ـ كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي. مكتبة لبنان ناشرون – بيروت/ الأولى – ١٩٩٦م.
ـ الكشاف للزمخشري: دار إحياء التراث العربي – بيروت تحقيق: عبد الرزاق المهدي د/ ت .

ـ الكليات لأبي البقاء الكفوي/ الرسالة بيروت١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.ت:عدنان ومحمد المصري

ـ لسان العرب لابن منظور / دار صادر – بيروت/ الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ ه

ـ المحرر الوجيز لابن عطية/ دار الكتب العلمية – بيروت/ الأولى – ١٤٢٢ هـ

ـ المخصص لابن سيدة/ دار إحياء التراث العربي بيروت/ الأولى، ١٤١٧هـ١٩٩٦م

ـ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير/ المكتبة العلمية – بيروت/ د ت.

ـ المعجم الاشتقاقي د. محمد جبل/ مكتبة الآداب – القاهرة/ الأولى، ٢٠١٠ م

ـ مفاتيح الغيب للفخر الرازي، دار الكتب العلمية بيروت/ الأولى/ ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠ م

ـ المفردات في غريب القرآن ت/ صفوان الداودي / دار القلم دمشق / ط: الأولى – ١٤١٢ هـ

ـ الموافقات للشاطبي / دار ابن عفان/ ط الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م

ـ النشر لابن الجزري / ت الضباع / المطبعة التجارية الكبرى / د ت.

ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي / دار الكتاب الإسلامي، القاهرة

ـ النهاية في غريب الأثر/ العلمية بيروت/ ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ت:طاهر الزاوى ومحمود الطناحي.

ـ الوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري / مكتبة الثقافة، القاهرة/ الأولى، ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م